

الموسيقى لغة الروح

الأستاذ ابراهيم الدرويش المصري
مفكس التريّة الموسيقية في سوريا

ولما كان التفكير بتأثير بالمؤثر الخارجي وبالظروف الآتية التي ينشط فيها ، فان النتيجة التي يصل اليها في حالة التأثر بالموسيقى ، هي نتيجة لا شك انها من مقومات الفهم التام والجمال المجرد الذي يتجه ناحية الخير .

ولم يعد اثر فن الموسيقى محصورا في اطراب الاذن واشباع الحواس ، كنوع من الترف والكماليات كما كان شأنها فيما مضى ، بل تمداه الى تادية خدمات جليلة في كل ميدان من ميادين التربية والمادة والمجتمع .

وكانت الحرب العالمية الاخيرة اختبارا قويا لتقيمة هذا الفن في ميادين عدة كالتوعية والتوجيه والترقية .

ولقد ادت الموسيقى دورها من قديم كوسيلة للدعاية المشرفة . فقبل قرن مضى تقريبا كانت « بولونيا » لا تعدو كونها امة مستعبدة تتناوب حكمها دولتان قويتان ، روسيا والمانيا وكانت اخبار كفاح شعبها الباسل - نظرا لتاخر وسائل المدنية آنذاك - تصل مشوهة لا تلفت ولا تثير الا عطفًا وقتيا . لقد اخفقت السياسة وفشلت الدعاية في لفت انظار العالم الى نصرة بولونيا الجريحة ولكن الموسيقى نجحت فيما اخفقت فيه جميع الوسائل ونجح موسيقى في استدرار العطف على امة واثارة ضمير الانسانية في صالح بلاده . فقد مور شوبان في مقطوعته (البولونية)

على الدرويش علم من اعلام الموسيقى في القطر العربي السوري .

ياخذ موقفنا من الموسيقى اوضاعا ثلاثة :

1 - نستمتع اليها كوسيلة لترفيه والطرب ، والاستماع الفني .

2 - نبحتها كعلم وفن وصناعة ومهنة .

3 - نبحتها في اثرها المام كثقافة ولدوق وتوعية وتوجيه ، وفي اثرها التربوي الخاص ، وهو ما يهمننا في هذه الكلمة .

الموسيقى فن رفيع بل لعله ارفع الفنون .
هي لغة الروح المجردة عن المادة ، المنطلقة من سلاسل الحياة وتيودها . هي لغة نبيلة تستطيع ان تانس اليها كل روح ويطمئن اليها كل قاب لانها الصدى الذي يعبر عن مشاعر لا تستطيع لغة الكلام ان تجاريها فيها . وارتباط الموسيقى هذا الارتباط الوثيق بالمعاطفة الانسانية يجعل تأثيرها امضى واكثر من غيرها من الفنون الجميلة في توجيه الروح والقلب وفي تفتح الطاقات وتفجيرها ، كخطوة اولى في سبيل توجيه الفكر البشري .

لان تأثير الموسيقى لا يزول بتأثير النفخة واللحن المنبث من الآلة الموسيقية او من الحنجرة البشرية ، اذ انها تنقل المشاعر الى عالم جميل علوي يستسيغه العقل ويعمل فيه بعربة وحيوية .

كفاح شعب جريح وصور في الحانها نداء الحق
المهضوم فاذا بهذه المقطوعة الموسيقية تسدي خدمة
لم تسدها السياسة قط الى شعب مناضل مكتم .
وتحررت بولونيا لان موسيقى (شوبان) قد حركت
الضمير البشري .

ومندي اكثر من مثال على ان الموسيقى تستطيع
باشراف الدولة ان توجه الجماهير والشباب والاجيال
في التربية والتوعية الهادفة ، توجيهها كليا .

مثالنا على ذلك موسيقى (فاكنر) الالماني التي
ادت دورا هاما في حياة المانيا ، فقد اوحث مقطوعاته
الى الشعب الالماني روح النضال والكفاح في سبيل
البقاء والاتحاد ، وكانت هاما قويا في تكوين المانيا
ايام حرب السبعين ، ثم استخدمت ثانية في النهوض
بالمانيا بعد هزيمتها في الحربين العالميتين الاولى
والثانية فقد ادخلت في البرامج الدراسية وفي
الشهادات العامة وبثت في نفوس الشعب الالماني
فوجهته الى الثبات في محبة الوطن والقومية وخدمت
اغراض السياسة ايضا .

وقس على ذلك نشيد (المارسيلاز) الذي كان
من عوامل حماية الثورة الفرنسية وقد الف كلماته
ولحنه الثائر (روجيه دي ليل) . وانشيد معركة
بور سعيد العربية عام 1956 واخص بالذكر نشيد
(الله اكبر) ، ثم بعض اناشيد الثورة في الجمهورية
العربية السورية . وهناك امثلة لا حصر لها .

ولم يقتصر عمل الموسيقى على الميادين
الروحية بل تمدتها الى الميادين العملية ، اذ ان
استخدامها في المصانع خلال الحرب الاخيرة ومسا
بعدها ، قد ادى الى زيادة الانتاج زيادة كبيرة
ملحوظة .

ولا الهالي اذا قلت بان الدول الكبرى كالولايات
المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتي ومعظم الدول
النامية واخص بالذكر سويسرا التي ظهر فيها المربي
(جاك دلكروز) مؤسس مدرسة التنظيم والتربية
الموسيقية عام 1913 - كانت سبابة في ادخال
الموسيقى كوسيلة من وسائل التربية ، فقد اثبتت
الاختبارات العلمية الدقيقة ان الموسيقى تلعب دورا
هاما في تكوين شخصية ونفسية الطفل في سنينه
الاولى وفي دور المراهقة والشباب ايضا .
ولذا اصبحت الموسيقى من مقومات الحضارة
الحديثة كعلم وفن وصناعة ومهنة ووسيلة خطيرة من

وسائل العناية والتوجيه والتوعية والتربية والتعليم .
كما ان الموسيقى تريح العقل كما يريح الاستجمام
الجم لماتبثه من نشاط فكري نشاهد اثره واضحا
جنبيا في تفكير الطفل وزيادة قابليته للفهم والاستيعاب .

وهكذا نلمس للموسيقى اثارا ثلاثة في التربية:

1 - اثرها في التوجيه والتربية العامة
للشعب .

2 - اثرها في تربية الروح القومية والمحبة
للانسانية .

3 - اثرها التربوي في المدرسة .

لهذا كان لا بد لنا اذا ما اردنا ان نقوم على تربية
جيل جديد يتوقف عليه ازدهار شان امتنا ان نأخذ
بعين الاعتبار مسألة ادخال الموسيقى بصورة جدية
في وسائل التربية كعنصر اساسي للتربية النفسية
والخلقية وتثريتها في مناهج التعليم العام بجميع
مراحلها واعتبارها في الشهادات العامة ، والمعمل على
افتتاح المعاهد الموسيقية لرعاة الموهوبين والمعاهد
الشعبية لتثقيف الهواة ، وتنظيم الامور الموسيقية
والعناية بها باخلاص ونزاهة في كل من الازمسة
والتلفزيون . على ان يكون هدفنا دوما توجيه فن
الموسيقى توجيها سليما للتاثير على عقلية رجال
ونساء الغد بما فيه دعم بناء الامس .

واري ان تكون الموسيقى قطعة من حياة الطفل
ذكرا كان ام انثى وخاصة في مرحلة رياض الاطفال
والتعليم الابتدائي ، واري ان تربي غرائز الطفل
ونفسه تربية موسيقية وخلقية قوية بتوجيه فني
تربوي ، يستطيع ان ينفذ الى مشاعره ويسمو بها .

وبهذا تسهل مهمة المربي والمربية لان الموسيقى
اداة فعالة في تدريب عقلية الطفل وتهذيب نفسيته
وتوسيع مداركه في الطريق التي ترسمها قواعد
التربية .

ولنضرب مثلا للمجهود العربي في هذا المجال
بحياة علم من الاعلام الموسيقي في القطر العربي
السوري هو الاستاذ علي الدرويش : فقد ولد وتوفي
في حلب 1884 م - 1952 م .

كان جده الاكبر من اصل مصري عربي ، خلف
ولدا اسماء ابراهيم ، كان ابراهيم هو والد علي
الدرويش يشتغل بتجارة الاقمشة وقد نشأ نشأة
مصامية دينية ، تعلم القراءة والكتابة في الكتائب

والمدارس الدينية وكان ذا صوت حسن ومن اتباع الطريقة المولوية «التكايا المولوية» في المعهد التركي العثماني ، فكان لذلك اثر كبير ورثه عنه ابنه الصغير علي ، وعندما كان الفتى الصغير علي يدرس في المدرسة الاشرفية الابتدائية ، ينتهز الممثل المدرسية وخصوصا ايام الجمعة ليسرور والسده في التكية للاستماع الى حفلاتهم الخاصة ، فكان يستمع طويلا الى اناشيدهم وموسيقاهم الصوفية وبموجب بها ومن هنا نشأ تعلقه بالموسيقى وشغفه بها .

وبقي في هذا العمل زهاء عشرة اعوام متوالية ، كان خلالها دائم البحث والتنقيب عن اصول الموسيقى ودقاتها بصورة عامة والموسيقى والالحن والمؤلفات العربية التركية بصورة خاصة . لذلك فان الشيخ علي تاجر كثيرا بأساليب والحن الموسيقى التركية التي طعم بها الموسيقى العربية بمؤلفاته والحنه، وقد لحن عددا كبيرا من الالحن باللغة العربية ومن الالحن الالية كالبخارف والسمايات ، ومن الالحن المولوية باللغة التركية وهي الحان مطبوعة بطابع الخشوع والوقار والمعروفة باسم « آيين شريف » ومن الحنه آيين كردبلي حجاز كار وغيره ..

رحل الشيخ علي رحلته الاولى من حلب الى امارة الحمرة في ولاية البصرة وقد ارسل في طلبه امير الحمرة على رأس فرقة موسيقية غنائية وذلك بعد ذبوع شهرته خارج البلاد السورية، وعندما سافر الى الحمرة كان عمره حوالي السابعة والعشرين عاما بعد ان استقال من وظيفته في المولوية نهائيا . وكان تاريخ سفره الى الحمرة وعودته منها ما بين عام 1912 الى عام 1914 م . وقد عاد الى بلده حلب في بداية الحرب العالمية الاولى فقد امضى في ضيافة (الامير خزعل) سنتين كان فيهما موضع حفاوته واکرامه مع اعضاء فرقته الموسيقية .

انتهز فرصة وجوده في تلك البلاد فزار البصرة وبغداد وطهران ومنها سافر الى الهند وحل في كراتشي وبومباي ثم قفل راجعا الى حلب ابان الحرب العالمية الاولى ايام حكم السلطان رشاد كما ذكرت.

وفي عام 1914 حتى عام 1923 م . سافر الى البلاد التركية فاصدا استنبول بصحبة شيخ تكيه حلب « عامل شابي » وهناك في استنبول اتم الشيخ علي دراسته العالمية في الموسيقى في معهد « دار الالحن » الشهير . وقد عين بعد ذلك مدرسا للموسيقى في مدينة « قسطنوني » وهي مركز ولاية قسطنوني الواقعة شمالي تركيا قريبة من شاطيء البحر الاسود . وقد ألف في مدينة قسطنوني فرقة موسيقية نحاسية امضاؤها من طلبة المدارس الثانوية ودور المعلمين والصنائع والميتم الاسلامي كانت هذه الفرقة تعزف في المناسبات الرسمية وغيرها . وكانت اقامته في مدينة قسطنوني تسع سنوات تزوج خلالها من هناك .

وقد انجز في هذه الفترة كتابا في دراسة الموسيقى من تأليفه في خمسة الى سبعة ابواب .. ثم

انس شيخ التكية « عامل جلي » بالشاب علي صوتا جميلا وميلا قويا للموسيقى فاوكل اليه مهمة اداء الاذان في شهر رمضان .. ثم طاب من والده ان يلقنه الحان الطريقة المولوية واغانيتهم كي يشترك ابنه علي في حفلاتها وكانت تضم جدران التكية المولوية في ذلك الحين « عثمان بك » الملقب « كجوك عثمان » مؤذن السلطان عبد العزيز سابقا الذي نفاه السلطان عبد الحميد عند توليه الحكم وعنى يدي « عثمان بك » تلقى علي دروسه الاولى في مبادئ الموسيقى وقواعدها الاولى . ثم رار مدينة حلب في هذه الفترة من الزمن موسيقار تركي من اشهر نافخي « الناي » يدعى « شرف الدين بك » وقد اخذ عنه علي الشاب دراسة النفخ بالناي ؛ وفي تلك الاثناء كان يجمع ما بين دراسته في المدرسة اثناء النهار ودراسته الموسيقية في التكية اثناء الليل . وعندما انهى دراسته الابتدائية التحق بالمدرسة العثمانية للموسيقى الدينية سابقا وهي « الخسرفية » والكلية الشرعية حاليا وكان من اساتذتها المرحوم الاستاذ الكبير الشيخ بشير الغزي . وعندما انهى دراسته في هذه المدرسة بعد اربع سنوات كان ما زال منكباً على دراسته الموسيقية وقد لقب بالشيخ علي لتقدمه في الفن الموسيقي على اقرانه وتفوقه فيه ، ثم لدراسة في المدرسة العثمانية ولقب بالدرويش ايضا لانتسابه الى الطريقة المولوية فاطلق عليه الشيخ علي الدرويش ، وكان يطلق عليه ايضا « علي دده » بالتركية لانتسابه الى الطريقة المولوية . لذلك فقد اتقن هذا الشاب اللغتين العربية والتركية وعمره لا يتجاوز الثانية عشرة .

وقد عينه بعد ذلك شيخ التكية (عامل جلي) في وظيفة (قدوم زادياشي) رئيس جماعة الموسيقيين في « المطرب » وهو المكان الذي كان يجلس فيه جماعة العازفين والمغنيين اثناء حفلاتهم الخاصة ،

اذن ملكي صادر في سراي راس التين بالاسكندرية في 18 تشرين الاول عام 1931م. وذلك للسفر مع ديرلنجيه الى تونس للعمل معه على اتمام ابحاثه في الموسيقى العربية .

وقد اشترك للشيخ علي في عام 1932 م . في مؤتمر الموسيقى العربية الذي عقد في مدينة القاهرة بدعوة ملكية رسمية . هذا المؤتمر المشمول بالرعاية الملكية والذي اشترك فيه نخبة من اساتذة الشرق والغرب ودام انعقاده قرابة شهر . سافر الشيخ علي الى تونس ومكث هناك من عام 1931 م حتى عام 1939 أي حتى بداية الحرب العالمية الثانية . عندما سافر الى تونس عام 1931 م . كما ذكرت سابقا ومكث هناك عدة اشهر ، عاد الى القاهرة بعد ان طلب رسميا لمؤتمر الموسيقى العربية وائر انتهاء هذا المؤتمر سافر الى تونس صحبة البارون ديرلنجيه للعمل معه على اتمام ابحاثه ودراساته حول الموسيقى العربية بعد ان ترك القطر المصري نهائيا ، وبعد شهرين من وصوله الى تونس الخضراء ، تعاقب مع وزارة المعارف التونسية في معهدي المطارين والرشيدي لتدريس الموسيقى . فمكث في تلك الديار ذهاء ثمان سنوات كان يطوف خلالها مع ديرلنجيه في جميع البلاد التونسية وشمال افريقيا للبحث عن الالغان الباقية من آثار الاندلسيين الذين هاجروا قديما الى تونس والقيروان واكثرهم من سكان قرطبة وقرنطة واشبيلية وقد كلفت هذه الابحاث البارون ديرلنجيه مبالغ طائلة ولكن الشيخ علي وفق اثناء ذلك الى جمع وتكوين اربعة عشر « نوبة أندلسية » وعشرين ملحقا لهذه النوبات وجملة موشحات أندلسية . وقد استطاع الشيخ علي الاحتفاظ لنفسه بنسخة من هذه النوبات والموشحات الاندلسية لتكون في حوزته .

وقد اسس الشيخ علي هند عودته الى مدينة حلب خلال العطل الصيفية مع رهنط من اصدقائه من هواة الموسيقى حوالي عام 1934 م . ناديا موسيقيا لتدريس الموسيقى ونشرها باسم « النادي الموسيقي بحلب » وكان مقره وقتئذ في باب النصر . ثم انتسب عضو شرف في نادي « دوحه الميماس للموسيقى والتمثيل » في مدينة حمص وكان في تلك الاثناء عضوا عاملا في حزب الكتلة الوطنية الذي كان يتزعمه الزعيم الراحل ابراهيم هنانو ضد الانتداب الفرنسي ، فلحن الكثير من الاناشيد الحماسية والوطنية في مناسبات عديدة . فاذا ما انتقضت العطل الصيفية عاد الشيخ علي الى مقر عمله في تونس . . وقد عمل

عاد بعد ذلك الى مدينة حلب تاركا في قسطنطيني اجمل الذكري وخلف عددا من التلاميذ اصبحوا اساتذة من بعده . . وعندما عاد الشيخ علي الى اهله وذويه في حلب كانت سوريا حينذاك تحت الانتداب الفرنسي . مكث ثلاث سنوات الف خلالها الكثير من الالغان الفنائية والآلية . مثل سماوي عجم عشيران وسماوي نهاوند ولونقا فرحفا وفيها . وقد بحث في هذه الفترة من الالغان العربية القديمة التي اشتهرت بها سوريا وخاصة مدينة حلب فجمع من التراث العربي الشعبي القديم وغيره ودونه وسجله بالعلامات الموسيقية الحديثة كالموشحات والتدود والادوار وفاضل « اسق المعاش » ورقص السماح مع تدون العانها .

ثم انتسب عضوا عاملا الى نادي « الصنائع النفسية » وكان من اعضائه الاساتذة المرحوم شرف الدين الفاروقي والدكتور فؤاد رجائي والاستاذ سعد الدين القدسي مؤسس النادي وغيرهم .

وفي هذه الفترة سافر علي راس فرقة موسيقية الى استانبول ، نال هناك نجاحا باهرا ثم عاد مصطحبا معه عددا ضخما من الكتب والمؤلفات الموسيقية في شتى الفروع والاختصاصات في اللغات التركية والعربية وغيرها ، وفي عام 1927 م حتى عام 1931م رحل الشيخ علي الى القطر المصري ، بعد تسلمه دعوة رسمية من النادي الموسيقي الشرفي بمصر الذي اسس في القاهرة عام 1913 م . ذهب لتدريس الموسيقى هناك بعد ان اتفق اهضاء النادي المذكور الذي شمله الملك فؤاد الاول برعايته وعلى راسهم رئيس النادي مصطفى بك رضا ، على شراء كتاب مؤلف في الموسيقى للشيخ علي وتدرسه مدة اربع سنوات بصورة مبدئية على ان يكون للنادي الحق في نشر الطبعة الاولى من هذا الكتاب . وتعرف اثناء اقامته في مصر على كثير من الشخصيات الفنية وغيرها . ودرس عليه في هذه الاثناء بعض المشهورين الان كلاساتذة : محمد عبد الوهاب ، رياض السنباطي والسيدة ام كلثوم . وكان الشيخ علي يعود الى حلب خلال عطلة النادي صيف كل عام . وفي عام 1931 م اي قبل انعقاد مؤتمر الموسيقى العربية بسنة واحدة تعرف الشيخ علي في مصر بمستشرق انجليزي يدعى البارون ديرلنجيه والذي دعاه هذا الاخير للعمل معه في تونس لتمام ابحاثه في الموسيقى العربية بعد ان اعجب بمقدرته الفنية ثم استحصل له من طريق النادي الموسيقي الذي كان يعمل فيه على

من عمر ناهز الثامنة والستين وقد شيمت جنازته في حفل رهيب مشى فيها بعض الهيئات الحكومية وقد جاء خصيصا من اساتذة المعهد الموسيقي الشرقي بدمشق للاشتراك بتشجيع جنازته الى جانب اساتذة وطلاب المعهد الموسيقي في حلب حشد كبير من الجمهور ، ودفن في مقبرة آقيول بحلب .

واورد هنا مقتطفات من قصيدة شعرية للشاعر التونسي محمود بورقيبة يمتدح بها فيف تونس حينذاك المرحوم الاستاذ علي الدرويش عنوانها :
- رابطة الفن بين تونس وشقيقتها سوريا -

يقول الشاعر محمود بورقيبة :

لمدة الفن اجلاسي واعظامي
الى «علي» الى ذي المركز السامي
الى الذي حل بالخضراء فافترفت
من فنه علم اوزان وانغام
الى الذي كان يلقي من شبيبتها
دوما عواطف تقدير واكرام

الى ان قال :

« علي » بلغ لسوريا الشقيقة من
خضرائنا كل تبجيل واعظام
وعد لتونس يا استاذ عبودة ار
هار الربيع لها في عذب بسلام
وانشر باجوائها فنا رفعت له
راسا كريما فاضحى شامخ الهام

الى ان قال :

سر عمدة الفن نحو الشام وابق لنا
الذكرى العزيزة ذكرى خير اسام
واحمل الى الشام من خضرائنا ارجا
عربون ود عميق بالحشا نامي
والشرق في صدره لا زال يجمعنا
والفن قد ربط الخضراء بالشام

ايضا في الاذاعة التونسية وقام من تونس مع بعض الاصدقاء برحلات الى اوربا وحضر بعض الحفلات الموسيقية لدور الاوبرا والسفونواذ كان يجب جدا بتلك الموسيقى التي وصلت الى ما وصلت اليه في تطورها من الرقي والكمال .

وفي هذه الاثناء توفي البارون ديرلنجيه مأسوفا عليه بالنظر لخدماته الجليلة للموسيقى العربية وقبل مغادرة الشيخ علي الديار التونسية انعم عليه باني تونس آنذاك بوسام الافتخار من الدرجة الثالثة تقديرا له على خدماته للموسيقى العربية في المملكة التونسية .

وفي ابتداء الحرب العالمية الثانية عام 1939م قفل الشيخ علي راجعا الى وطنه تاركا آثارا طيبة واصدقاء وتلاميذ أصبحوا عمدة النهضة الموسيقية في تونس ومنهم الاستاذ صالح المهدي رئيس اللجنة القومية للموسيقى حاليا ، وعندما عاد الى حلب الف كتابا في الموسيقى بعنوان « النظريات الحقيقية في علم القراءة الموسيقية » .

وفي عام 1942 م . عين الشيخ علي مميذا ومدرسا في المعهد الموسيقي الشرقي بدمشق .

وفي عام 1944 م . سجل في محطة الاذاعة في القدس بفلسطين نخبة كبيرة من الموشحات القديمة ثم عمل مدرسا في معهد الفنون الجميلة في بغداد من عام 1945 حتى عام 1951 م . وقد سجل في اذاعة بغداد ايضا عدة تسجيلات من الموشحات القديمة وبقي هناك زهاء ست سنوات ، وفي عام 1946 م . كان الشيخ علي الدعامة الكبرى في تأسيس المعهد للموسيقى في حلب ولدى عودته الاخيرة الى الوطن عام 1951 م . عاد الى عمله السابق في المعهد الموسيقي ، هذا المعهد الذي أسسه المرحوم الدكتور فؤاد رجائي ثم عين الشيخ علي الى جانب عمله في المعهد مستشارا فنيا في دار الاذاعة السورية في حلب الى ان وافته المنية في مدينة حلب يوم الخميس المصادف في 12 ربيع الاول 1371 هـ . الموافق في 26 تشرين الثاني عام 1952م